

الولاء والبراء



الحمد لله الذي خلق كل شيء وإليه ترجعون، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون، يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويمحي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، سيد المرسلين وحبیب رب العالمین، وإمام المتقین، وقائد الغر الميامین، فصلی الله وسلم علیه، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً.....

أما بعد أيها المسلمون:

إن حديثنا اليوم، عن قضية مهمة جداً، ألا وهي قضية الولاء والبراء، وقد يسأل سائل: ما هو هذا الولاء والبراء الذي تحدثونا عنه.

فنعول باختصار: إن الولاء هو: الحب للمسلمين، وإن البراء هو: البغض للكافرين والجاحدين والمنافقين، وقد جاء في القرآن الكريم ما يقرر هذه القضية، قضية الولاء والبراء، فقد جاء تأكيد على أنها قضية حاسمة جازمة، لا تقبل التميع أو المهادنة، إنها القضية التي أبان فيها القرآن رأيه وحكمه، بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۗ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ٥٦﴾ (المائدة: ٥٥ - ٥٦) فجاءت الآيات، صارمة صارخة واضحة، تبين هذه المسألة، ولئن يكون الولاء والبراء، حيث قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ

ءَامِنُوا لَا تَخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْتُمْ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴿ (المتحنة: ١) ﴿ يَتَأْتِيهَا
 الَّذِينَ ءَامِنُوا لَا تَخِذُوا أَتِيَهُدَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ ﴿ (المائدة: ٥١) ، ولذا فقه الجليل
 الأول من المهاجرين والأنصار هذه المسألة ، فلم يقبلوا فيها مساومة أو
 مهادنة أو محاباة ، أما اليوم ، فنحن بحاجة ماسة إلى التاصيل في قضايا
 العقيدة ، حتى يعلم كل مسلم أنه ليس حراً في توزيع ولاء آتة ، ليس حراً
 في بعثرة جهوده وإنتماء آتة ، ليس حراً في حبه لأعدائه ، فكل صف لا
 يتخذ الإسلام ديناً وعقيدة ومنهجاً ، الشأن بيننا وبينه المفاصلة والمدابرة
 والمقاطعة ، لأن المسألة في صميمها مسألة عقيدة وإسلام ، حتى لا يكون
 الإسلام مجرد كلمة تقال ، أو راية وشعار ، أو دعاية وإعلان .

سبب الحديث عن الموضوع :

وسبب حديثي عن الولاء والبراء في هذا المقام ، هو ما رأيناه ونراه
 في هذه الأزمنة المتأخرة ، من تساهل المسلمين في قضية الولاء والبراء ،
 فأصبح بعض الناس يستحسن الولاء للكفار ، ويعده من باب المجاملات
 الرقيقة ، أو من باب المصلحة ، وقد نسمع اليوم ، دعوات وصيحات ،
 ذات اليمين وذات الشمال ، تدعوا إلى موالة الكفار ، واتخاذهم أحبباً
 وأخلاء ، وهذا أمر في غاية الخطورة ، لأن الخير والشر ، والحق والباطل ،
 والإسلام والجاهلية ، في صراع مرير ودائم إلى أن تقوم الساعة ﴿ وَلَا يَزَالُونَ
 يُقْتَلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا ﴿ (البقرة : ٢١٧) ولذلك
 فإن قضية الصراع ، لا بد أن تستمر ، ونظرية التفرد والسيادة ، التي يسعى
 إليها الغربيون ، لا يمكن أن تتحقق ، لأن من سنن الله التدافع والتنازع
 والاختلاف ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿ (١١٨) ﴿ إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ ﴿ (هود: ١١٨ -
 ١١٩) وعليه لا يمكن أن يبقى أحد متفرد بالهيمنة والألوهية والسيطرة

الكاملة، إلا إله واحد، هو الله رب العالمين ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيبِينَ﴾ (٦٢) ﴿(الأنعام: ٦٢) لقد حاولت قريش، عبر المفاوضات الدبلوماسية، وقدمت العروض، من أجل أن تنال شيئاً يفت في قضية الولاء والبراء، فقالوا: يا محمد، اعبد إلهنا سنة، وعبد ربك سنة، فنزلت سورة الكافرون، تبين هذه المفاصلة، وتقرر حتمية المواجهة مع الكفار، في مسألة الولاء والبراء، في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا آلِهَتَكُمْ وَأَنَا عَابِدُ مَا عَبَدْتُمْ﴾ (١) ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (٢) ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٣) ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ (٤) ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٥) ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (٦) ﴿(الكافرون: ١-٦) لقد حاولوا بكل شيء، حتى عرضوا عليه الملك والرئاسة، والجاه والسلطان، بعد أن عرضوا عليه المال والطب والنساء، من أجل ذوبان قضية الولاء والبراء، لكنه لم يفعل، ولم يقبل منهم ذلك، بل قال كما جاء في السيرة: (يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، ما تركته، أو أهلك دونه) بمعنى أن المسألة لا تحتاج إلى تفاوض، أو إلى هدنة، أو إلى تأجيل، أو إلى مراحل، ورغم أن هذه القضية، قضية الولاء والبراء، اعتنى بها النبي ﷺ غاية العناية، إلا أن كثيراً من المسلمين اليوم، يجهلون قضية الولاء والبراء، ويعيشون انفصاماً وتكراراً لهذه القضية، فمرة يوالون، ومرة يعادون من حيث لا يعلمون، فقد أصبح غالب ولاء الناس وبرائهم، من أجل هذه الدنيا، فإن أعطوا منها رضوا، وإن لم يعطوا منها، إذاهم يسخطون، فقد جهل كثير من المسلمين اليوم هذه المسألة، حتى بتنا -ويا للأسف- نسمع في بعض المناسبات من يقول للكفار: إخواننا، واليهود: إخواننا، والنصارى: إخواننا، بل قد سمعنا زعيماً عربياً يقول: أخي راين اليهودي، ولا حول ولا قوة إلا بالله، واليوم قد نسمع من يقول: أن بوش أخوه من

الخطبة التاسع

الرضاعة، الله أكبر، أين الولاء والبراء من الكفار، أين نذهب بقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ (المائدة: ٥١) أين نذهب بقوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ (النساء: ٨٩) إذا ليسوا لنا بأخوة، وليسوا لنا بأولياء، وإن حصل بيننا وبينهم تعاملات أو علاقات أو تجارات، أما المؤمنون فهم إخواننا في الدين والعقيدة، وإن تباعدت بيننا وبينهم الأنساب، والأحساب، والأوطان، والأزمان، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ (الحشر: ١٠) إذا ما الذي يجعلنا نعطي ولائنا للمؤمنين؟ ما الذي يجعلنا نحب خالد بن الوليد وأبا بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وابن تيمية وأحمد بن حنبل، والشافعي والإمام مالك، وما الذي يجعلنا نكره فرعون وهامان وأبو جهل، وأبو لهب، وفراعنة اليوم؟ فنحن اليوم نكره الفراعنة المتسلطين على هذه الأمة، ونكره الظالمين والمتكبرين، ونكره المجرمين، ونكره الكذابين والمرتشين، ونكره أولئك الذين يجلسون مع الكفار في طاولة واحدة، ونكره أولئك الذين يعانقون أعداء الإسلام، ويقبلونهم في ذلة وصغار، نكره أولئك العملاء لليهود والأمريكان، ونحب المؤمنين الطيبين ونواليهم، ونبغض الكافرين ونعاديهم، نبغض بوش وبلير وكل من يأتي من بعدهم، أو يتسب لهم بصلة، أو يقف معهم، أو يساندهم، أو يواليهم من دون المؤمنين، لماذا؟ لأنهم أعداء الإسلام، ومع ذلك نعطي كل ولائنا وحبنا للمسلمين، ولا شيء يحبس ولائنا للمؤمنين، فنحن نحب الأعاجم من المسلمين الذين لا يعرفون من العربية حرفاً واحداً،

ونحب أقواماً تفصل بيننا وبينهم البحار والمحيطات ، ونحب أقواماً ليس بيننا وبينهم أنساب ولا قرابات ، لماذا ؟ لأنهم مسلمون :

إن يختلف ماء الوصال .∴ فماؤنا عذب تحدر من غمام واحد أو يختلف نسب يؤلف بيننا .∴ دين أقمناه مقام الوالد

وبناءً على ذلك ، ينبغي لعامة المسلمين ، أن يقيموا بينهم وبين إخوانهم جسراً راسخاً ، من عقيدة الولاء والبراء ، وألاً يتدابروا ، وألاً يتقاطعوا ، بسبب تقاطع الأنظمة أو تقاطع الحكومات ، فقد يحصل بين دولة ودولة ، حرب أو مشكلات ، ولكن مع ذلك يجب أن يبقى المسلم مسلماً بإسلاميته ، ومستحقاً للولاء ، أياً كانت دولته أو قيادته ، أو جنسه أو لونه ، لأن بعض الناس ، يظن أن مسألة الولاء والبراء ، مسألة جغرافية ، أو حدودية ، كلا ، إنها عقيدة أزلية ولائية لكل المسلمين ، لا فرق بين عربي ولا عجمي إلا بالتقوى ، ولا فرق بين : أحمر ، وأصفر ، وأبيض ، وأسود ، كلهم لآدم ، وآدم من تراب .

موقف المسلمين من الكفار :

ولهذا يجب أن يكون ولائنا وحبنا للمسلمين ، أمّا الكفار ، فليس بيننا وبينهم ولاءات ، وليس بيننا وبينهم علاقات ، في ظل هذه الهجمة الشرسة ، والهيمنة الاستعمارية ، ولكن بعض المسلمين اليوم ، يقولون : لا بدّ أن ندخل مع هؤلاء الكفار في علاقات ، لا بدّ أن ندخل معهم في ولاءات وتكتلات ، ولا بدّ أن يكون لنا مكانة عندهم ، والله عز وجل قد بين هذه المفارقة العجيبة ، بقوله تعالى : ﴿ أَيَبْنَتُوكَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ ﴾ (النساء : ١٣٩) يريدون منهم المكانة والرفعة والمال والتسهيلات ، كلا ، فهؤلاء

المتذللين لأسيادهم الغربيين ، قد هدموا عقيدة الولاء والبراء ، ولذلك قال الله عن أولئك المنافقين الذين هدموا عقيدة الولاء والبراء ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنَّا عَنْهُمْ الْبُرْءَ فَإِنَّ الْبُرْءَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ (النساء: ١٣٩) كذلك بعض المسلمين الذين يتولون الكفار ، قد تبعوا قضية الولاء والبراء ، وذلك نتيجة ، لخواء إيمانهم ، وخوفهم من أسيادهم المتسلطين على رقابهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَا أَتَوْا بِهَذَا بَرَاءٍ لَكُمْ وَلَكِنْ كَذَّبُوا عَنْكُمْ فَمَقِصُّوا ﴾ (المائدة: ٨١) واليوم إذا سألناهم : لماذا هذا التساقط وهذا الانبطاح أمام الكفار ، بهذه الصورة الرخيصة الدنيئة ، سيقولون ﴿ نَخَشَى أَنْ يُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾ (المائدة: ٥٢) نخشى ونخاف من الكفار ، نخشى ونخاف من الأمريكان ، ولذلك يقول الله عنهم : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخَشَى أَنْ يُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَهِيَ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرَأُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِينًا ﴾ (المائدة: ٥٢) هذه المقولة الانهزامية ﴿ نَخَشَى أَنْ يُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾ قد تبناها المنافقون ، عندما نزلت سورة براءة ، ألا يحج بالبيت مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، فقالوا: هذا يمكن أن يؤثر على تجارتنا ، ويمكن أن يضر بالاقتصاد على المسلمين في مكة ، فنزل قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ التوبة الآية (٢٨) وعلى سبيل المثال ، قد يقال في هذا الزمان: إن السياحة في بلاد المسلمين ، قد يصيبها أضرار وانتكاسات ، إذا قطعنا علاقاتنا مع الكفار ، فنقول كما يقول ربنا سبحانه وتعالى ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ إن خفتم على الموارد السياحية والاقتصادية ، فسوف يفتح الله لكم موارد أخرى ، تذكيراً بقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأْتُوا فِي مَنَآكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (الملك: ١٥) .

الولاء والبراء من أصول التوحيد :

إذا الولاء والبراء أصل من أصول الإسلام والإيمان ، ولن يتحقق التوحيد في الأرض إلا بتحقيق مبدأ الولاء والبراء ، فقد يحسب بعض الناس ، أن هذا المفهوم العقدي الكبير ، قضية جزئية أو ثانوية ، بل إنها قضية إيمان وكفر ، إسلام وجاهلية ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ ءَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٣٣) قَدْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبِغْيَةٌ فَكُفْرًا تَنْتَهِوا عَنْهَا وَاسْتَرِضُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ءَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٤١) (التوبة : ٢٣ ، ٢٤) ولقد مكث رسول الله ﷺ بمكة ثلاثة عشر عاماً يدعو الناس إلى هذه العقيدة ، عقيدة الولاء والبراء فإذا عرفت هذا ، عرفت أن الإنسان لا يستقيم له إسلام ولا إيمان ، إلا بتحقيق مبدأ الولاء والبراء من المشركين والكافرين ، والتصريح لهم بذلك ، كما قال تعالى في سورة المجادلة : ﴿ لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ءُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ (المجادلة : ٢٢) .

وعليه يتضح مما سبق : أن الولاء والبراء ، من لوازم لا إله إلا الله ، ولا يكفي أن يقول الناس : لا إله إلا الله ، وهم يوالون أعداء الله ، لذلك فهتم قريش هذه الكلمة ، وأن معناها : البراءة والمفاصلة بين أهل الإيمان وأهل الكفر ، معناها : أن المسلم يجب أن يبقى مسلماً بإسلاميته ، وأن الكافر يجب أن يبقى كافراً بكفره وعناده ، معناها : أن تبرئ قريش من

كل الطواغيت الجاهلية ، وتعلن ولائها للإسلام ولمحمد عليه الصلاة والسلام ، وعليه نقول: لا يجوز أن يتميع المسلم مع غيره من الكافرين ، ولا يظهر لهم الولاء ، بحيث يتعايش معهم ، أو يحافظ على مشاعرهم ، خوفاً عليهم وعلى نفسه ، أن يصموه بالتشدد أو التزمت ، بل يجب على المسلم أن يعتز بإسلامه ، ويظهر شرائع دينه ، غير آبه بغضب أولئك ، أو مراعاة ظروفهم ومشاعرهم نحو المسلمين ، فقد كان الأمر واضحاً لرسوله ﷺ أنه لا خيار له من الإعلان بالإسلام وشرائعه ، مهما كانت النتائج ، ومهما غضب عليه المشركون ، أو الكافرون ﴿ فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الحجر: ٢٤) ومن هنا: استحق المؤمنون أن يكونوا من أولياء الله لأنهم استجابوا للحق والهدى ، أما أولئك المنافقين فهم أولياء الشيطان لأن من سماتهم أنهم يعادون أولياء الله ، ويحاربون الإسلام ، ويقفون دائماً في صف الكافرين وخذقهم ، ولذلك يصف الله حال الفريقين ، فيقول سبحانه وتعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة: ٢٥٧).

الولاء والبراء عند المؤمنين السابقين :

أيها المؤمنون؛ إن هذا الولاء والبراء الذي حدثناكم به سابقاً ، والذي نحدثكم به اليوم ، لا بد أن يكون لله ولرسوله وللمؤمنين ، وهذه الولاية الإيمانية ، يجب أن تصبّ في خانة الإسلام ، ويجب ألا نحصرها لحزب بعينه ، أو جماعة بعينها ، أو لدعوة غير الإسلام ، ولكن لكل مسلم في أي أرض ، وتحت أي سماء ، هي للإسلام ما بقي الإسلام ، ميزتها أنها لله ، وأنها تبقى ولا تفسى ، وأن متنهاها الجنة ، كما قال تعالى : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ

لِبَعْضِ عَدُوِّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ (الزخرف: ٦٧) وقد ضرب إبراهيم عليه السلام أروع الأمثلة في هذه الولاية ، حينما تبرأ من قومه وعشيرته الكافرين ، حيث قال : ﴿ إِنَّا بَرَاءٌ لِّرَبِّنا وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ﴾ (الممتحنة : ٤) وكان من نتيجة هذه المعاداة ، وهذا البراء القوي ، أن أجمع الطغاة على قتله ، والتنكيل به ، حيث : ﴿ قَالُوا اتُّرِكُ لَهُمْ يَنْتَحِبُوا فَالْقُوَّةُ فِي الْجَحِيمِ ﴾ ﴿٦٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿١٨﴾ (الصافات : ٩٧ ، ٩٨) ومن هذه الأمثلة التي نريد أن نتحدث عنها باختصار ، نوح عليه السلام وموقفه من ابنه الذي فاصله ، وأعلن البراءة منه ، بعد أن عاتبه الله بقوله : ﴿ قَالَ يَنْتَوِجُ إِلَيْهِ لَيْسَ مِنَّ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَلَوَّنَّ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطَكُمُ الْغَيْبَاتِ مِنَ الْغَيْبِ ﴾ ﴿٤٦﴾ (هود : ٤٦) وهنا يأتي الاعتذار والإذعان والتسليم الكامل لأمر الله القائل : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ﴿٤٧﴾ (هود : ٤٧) وعلى النقيض من هذه الأفعال ، امرأة فرعون التي آمنت بالله وتبرأت من صلتها بفرعون وعمله ، فقالت : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِئْتِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَبِئْتِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿١١﴾ (التحریم : ١١) إن وقوف تلك المرأة المؤمنة لوحدها ، أمام ذلك اللئيم الجبار ، لتستعلي بإيمانها ، إنه لمثل رائع جميل ، وهناك أيضاً: نموذج آخر لهذا الولاء الرفيع ، الذي أعلنه مؤمن آل فرعون ، حينما قال فرعون ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ ﴿٦١﴾ (غافر : ٢٦) فقال ذلك الرجل الذي كان يكتم إيمانه: ﴿ أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ

اللَّهِ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ (غافر: ٢٨) وأخيراً: نقف مع الفتية الذين فرّوا بدينهم إلى الكهف ، وأعلنوها من هناك ، أنه لا ولاء بينهم وبين الكفار ، وأنه لا يمكن أن يتحالفوا مع الكفار تحت راية واحدة ، كما قال تعالى : ﴿ تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ الْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ (الكهف : ١٣ - ١٤) .

الولاء والبراء عند رسول الله ﷺ :

أيها المسلمون؛ إن أكبر مثال نقدمه لكم في تطبيق الولاء والبراء عند المسلمين ، ما جرى للنبي ﷺ مع قومه المشركين في مكة ، حينما رأى المشركون صلابة المسلمين في دينهم ، واستعلائهم في عقيدتهم ، أرادوا أن يميّعوا مفهوم الولاء والبراء عند المسلمين ، فقالوا: يا محمد ، نعبد إلهك سنة ، وتعبد آلهتنا سنة، فأنزل الله سورة المفاصلة ، أي سورة الكافرون ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مِمَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ (الكافرون : ١ - ٦) ، ونزل قوله تعالى : ﴿ فَأَصْدَعُ بِنَاتُومٍ وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ (الحجر: ٩٤) ، ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٦٤﴾ (الشعراء : ٢١٤) فاستجاب النبي ﷺ لهذا الأمر الإلهي من فوره ، وبدأ يعلن البراءة من الكافرين ، وجعل ينادي في بطون العرب ، قبيلة ، قبيلة ، وهو يقول : يا بني هاشم ، يا بني مرة ، يا بني عبد مناف ، حتى إذا اجتمعوا إليه ، قال لهم : أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة بنت محمد ، أنقذي نفسك من النار ، فإني لا أغني عنك من الله شيئاً) ثم بعد ذلك أذن الله له بالهجرة إلى المدينة ، وأمره بقتال الكافرين ، وليس مداهنتهم أو محاباتهم ، حيث قال ربنا سبحانه

وتعالى: ﴿ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْضِرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ﴾ (التوبة: ٥) ثم نزلت سورة التوبة تعلن البراءة من المشركين ، استنادا إلى قوله تعالى : ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ① ﴾ فسيحوا في الأرض أربعة أشهر وأعلموا أنكم غير معجزين الله وأن الله مخزي الكافرين ② ﴾ (التوبة : ١ - ٢) .

وبعد نزول هذه السورة ، أمر النبي ﷺ بالأحكام التالية ، أولاً :

١- منع المشركين من دخول المسجد الحرام ، استجابة لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَاهِدِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ③ ﴾ (التوبة : ٢٨) .

٢- جاء الأمر بمنع النكاح من المشركين والمشركات ، حيث قال ربنا سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ وَلَا أُمَّةً مُؤْمِنَةً حَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَا أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَمَنْ دَخَلَ مِنْكُمْ مِثْلًا فَأَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَبَيِّنُ مَآيَتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ④ ﴾ (البقرة : ٢٢٢) .

ومن الأحكام التي أمر بها النبي ﷺ :

٣- منع المسلمين من الإقامة في دار المشركين والكفار ، حيث قال عليه الصلاة والسلام (أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين) وكذلك السفر إلى بلادهم لغرض التزهة أو السياحة ، كما في الحديث السابق ، أما إن كان للدعوة أو العلاج ، أو طلب العلم ، فهذا لا بأس به إن شاء ، كذلك لا يجوز :

٤- الاستعانة بهم ، واتخاذهم بطانة ومستشارين من دون المؤمنين ، لأن الله - عز وجل - يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأُولُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ (آل عمران : ١١٨) وعليه؛ فلا يجوز إتخاذهم بطانة من دون المؤمنين ، لما رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قلت لعمر بن الخطاب ، إن لي كاتب نصراني ، فقال عمر رضي الله عنه : قاتلك الله ، ألا اتخذت حنيفاً مسلماً) ولهذا كتب عمر إلى أبي هريرة كتاباً ، جاء فيه : ولا تستعن في أمر من أمور المسلمين بمشرك ، وساعد على مصالح المسلمين بنفسك ، فإنما أنت رجل منهم ، غير أن الله تعالى جعلك حاملاً لأثقالهم) .

وكتب عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - إلى أحد عماله في الأمصار :

أما بعد؛ فإنه بلغني أن عندك كاتباً نصرانياً يتصرف في مصالح المسلمين ، والله تعالى يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (المائدة : ٥٧) فإذا أتاك كتابي هذا فادع ذلك الكاتب النصراني إلى الإسلام ، فإن أسلم فهو منا ونحن منه، وإن أبي فلا تستعن به) وقد فشا استخدام أهل الكتاب في أيام الخلافة العباسية ، فنهض أحد العلماء ، وهو شبيب بن شيبة ، بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذا الشأن ، وحذر أبا جعفر المنصور من استخدام أهل الكتاب في مصالح المسلمين ، ولكن نشاهد اليوم كثيراً من هؤلاء الكفار والمسيحيين ينتشرون في بلاد المسلمين ، في طولها وعرضها ، وتجدهم في المصانع والشركات ، والمؤسسات العامة والخاصة ، تحت ما يسمى بالأيدي العاملة والخبراء المدنيين والعسكريين ،

وتارة باسم الأطباء والمهندسين ، وهكذا دواليك ، بينما يرجد من العقول المفكرة ، والأيدي العاملة المسلمة ، من هي أكثر كفاءة ، وأكثر إتقاناً من غيرها ، ولكن نجد أن هذه العقول المفكرة تهتمش في بلادها ، ويضيق عليها ، فتذهب إلى الخارج بحثاً عن حياة أفضل ، ومما أذكر أني قرأت في إحدى الصحف الإسلامية أنه يوجد أكثر من (٤٠٠) ألف طبيب مسلم ، قد انتشروا في الدول الغربية والأوروبية ، وتركوا أوطانهم ، ومن العجب أيها الأخوة ، ما وقع لكثير من المسلمين اليوم ، فإنهم يأتون بالكفار إلى بلاد الإسلام وإلى الجزيرة العربية ، ويستخدمونهم عمالاً وسائقين ومربين وغير ذلك ، والله عز وجل يقول : ﴿ هَآئِنْتُمْ أَوْلَآءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِعَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ (آل عمران : ١١٩) .

كذلك من الولاء والبراء لا يجوز :

٥- التاريخ بتاريخهم ، لأنه يعبر عن طقوسهم وعبادتهم ، كالتاريخ الميلادي ، الذي هو عبارة عن ذكرى ميلاد عيسى عليه السلام ، ولهذا السبب ، لما أراد الصحابة -رضوان الله عليهم- أن يضعوا تاريخاً للمسلمين ، وضعوه استناداً بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، كذلك من الولاء والبراء ، لا يجوز .

٦- مشاركتهم في أعيادهم الوطنية ، أو الدينية ، أو تهنئتهم بمناسبةها ، لأن في ذلك موالاتهم ، وقد جاء في معنى الآية الكريمة ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ (الفرقان : ٧٢) أي : لا يحضرون أعياد الكفار وأفراحهم ، ولذلك لا يجوز لمسلم أن يشارك أعداء الله في أعيادهم ، فعن أنس بن

مالك رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قدم المدينة ولهم يومان يلعبون فيها ، فقال : ما هذان اليومان ، قالوا : كنا نلعب فيهما في الجاهلية ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن الله قد أبدلكما خيراً منها ، يوم الأضحى ويوم الفطر) النبي صلى الله عليه وسلم نهانا أن نشاركهم في أعيادهم الدينية ، ولم يكن يعلم أنه سيكون لهم أعياداً أخرى ، كعيد الأم ، وعيد الميلاد ، وعيد العمال ، وعيد الدجاج ، وغيرها من الأعياد التي ما أنزل الله بها من سلطان ، ولذلك يقول عمر رضي الله عنه : اجتنبوا أعداء الله في أعيادهم ، كذلك من الولاء والبراء ، لا يجوز :

٧- التسمي بأسمائهم : ولكن مع الأسف الشديد ، فقد أصبح بعض المسلمين اليوم ، يسمون أبناءهم بأسماء أجنبية ، وتركوا أسماء آبائهم وأمهاتهم وأجدادهم ، والأسماء المعروفة في مجتمعهم ، وقد بين ذلك النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : (خير الأسماء ، عبد الله ، وعبد الرحمن) ولكن وجد جيل من المسلمين اليوم ، يحمل أسماء غريبة وغريبة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، كذلك لا يجوز :

٨- الاستغفار لهم والترحم عليهم : لأن الله - عز وجل - قد حرم ذلك بقوله تعالى ﴿ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهَا جَحِيمٌ ﴾ (التوبة : ١١٣) ويقول تعالى في شأن المنافقين : ﴿ وَلَا تَصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّا تَابَ أَبَدًا وَلَا تَتَّبِعْ عَلَىٰ قَبْرِهِمْ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴾ (التوبة : ٨٤) فإذا كان هذا مع المنافقين ، فما بالكم بالكافرين ، ولكن رأينا بعض المسلمين من يحزن أو حزن على تلك العاهرة التي تسمى ديانا ، عندما هلكت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

الولاء والبراء عند الصحابة :

ولهذا يجب أن نعلم أن مبدأ الولاء والبراء في الإسلام لا يعرف تبعيضاً ولا تجزئة عند المسلمين، ولا يقدم قريباً لقربته أو بعيداً لوجهته، ولذلك جاءت المفاصلة التامة بين المؤمنين وأقربائهم من الكفار المعادين لله ولرسوله ﷺ كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءِآبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ ءَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ (التوبة: ٢٣) ثم يأتي التحذير الأقوى ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءِآبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ءُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ (المجادلة: ٢٢) لقد نزلت هذه الآية ، في أبي عبيدة عامر بن الجراح ، حينما قتل أباه في معركة بدر ، لأنه كان كافراً بالله ، محارباً لله ولرسوله ﷺ ولم تكن صلة الأبوة ، لتمنعه من قتل أبيه ، الذي اختار لنفسه أن يكون في حزب الشيطان، ومن الأمثلة على ولاء المسلمين لدينهم ، موقف صحابة رسول الله ﷺ من الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك ، أمر النبي ﷺ بمقاطعتهم وعدم الحديث معهم ، ولهذا لم يكلمهم أحد ، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، منهم كعب بن مالك رضي الله عنه أحد الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك ، فهجرته زوجته وذهبت إلى أهلها، وبينما هو كذلك يعيش حياة الهجر والحرمان ، إذ يأتيه أمر عجيب ، وبلاء عظيم، يستدعيه ملك غسان، ويريد أن يساومه في دينه ويتنصر ، فيقول كعب ابن مالك رضي الله عنه عن نفسه: فبينما أنا أمشي في سوق المدينة ، وإذا بنطي من أنباط أهل الشام، مِّن قَدَمٍ بالطعام إلى المدينة يبيعه ، يقول: من يدلني على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يُشيرون له نحوي ، حتى إذا جاءني

دفع إلى كتاباً من ملك غسان ، فإذا به ، أما بعد : فإنه بلغني أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسيك (أي : أن صاحبك محمد أعرض عنك وهجرك ، وأمر الناس بهجرك ولا يكلمك أحد ، فتعال إلينا نواسيك ونكلمك ونحدثك ، وتدخل معنا في النصرانية ، وترك محمداً ودينه ، هذا هو الاختيار الأصعب ، والابتلاء الشديد ، مع دواعي الإغراء والأغواء ، لكن كعب بن مالك رضي الله عنه ، لم يستجب لهذه الإغراءات الدنيئة ، وأعلن ولائه للإسلام ، وأنه لن يتنازل عن دينه مهما حاول أعداء الإسلام أن يتوددوا إليه بكلامهم المعسول ، ووعودهم القرمزية ، فإن تلك الأحاسيس الرهيفة والمشاعر الفياضة التي أبدأها ملك غسان لكعب بن مالك رضي الله عنه ، لم تؤثر فيه بل زادت ثباتاً وصبراً على دينه الذي آمن به ، مما جعله يضع تلك الرسالة في التنور تغليباً لدينه على تلك الشهوات وملذاتها ، أما اليوم ، فقد نجد من بعض المسلمين من يتنازل عن دينه وولائه ، حتى لو نال من أعدائه على شيء رخيص أو فئات يسير ، أو نال من أعدائه على وعود كاذبة ، أو مال زهيد ، فكم من المسلمين اليوم ، من يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل ، ومنهم من شاهد حضارة الغربيين ، فتمنى أن يعيش معهم أو مثلهم ، ومنهم من شاهد مبدأ العدل والمساواة والحرية التي يعيشونها في بلادهم ، فتمنى أن يحشر معهم وفي زمرتهم ، وبعض المسلمين عندما يشاهد تلك الحقائق والإيجابيات في بلادهم ، فإنه قد يسأل ويقول : إن بلادهم أفضل من بلادنا ، وإن دينهم أفضل من ديننا ، وهذا والعياذ بالله خروج من دائرة الإسلام ، لأن هذه المقولة الكفرية ، تناقض صريح الآية الكريمة ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ آل عمران الآية (١١٠) .

المشابهة للكفار:

إذا قضية الولاء والبراء، التي معناها في الإسلام، يجب أن يكون الولاء والحب للمسلمين، والبغض والكراهية للكافرين والمنافقين والجاحدين، وعليه فإن قضية الولاء والبراء قضية مهمة جداً، ركز فيها النبي ﷺ خوفاً على أمته من ولاء الكافرين واتباع سبيلهم ومنهجهم وطريقتهم، فكان ﷺ يدعو دائماً إلى مخالفتهم حيث يقول: (خالفوا المشركين)، (لا تشبهوا بأهل الكتاب)، (لا تشبهوا باليهود والنصارى) ولكن من المؤسف جداً، أن هذه الأمة ستفترق إلى ثلاث وسبعين فرقة، تشبهاً باليهود والنصارى، الذين اختلفوا إلى ثنتين وسبعين فرقة، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده، قوله عليه الصلاة والسلام (إن أهل الكتابين، اختلفوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة، ستفترق على ثلاث وسبعين ملة، كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة، وإنه سيخرج من أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء، كما يتجارى الكلب بصاحبه) وكذلك أخبر ﷺ أنه سيكون في أمته مضاهات لليهود والنصارى، ومن يحدو حدوهم، كما في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لتبعن سنن من كان قبلكم، حدو القذة، بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن).

وبين هذه الحقيقة ويجليها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عندما قال: أنتم أشبه الأمم ببني إسرائيل سمياً وهدياً، تعملون عملهم حدو القذة بالقذة، غير أني لا أدري أتعبدون العجل أم لا) ومن ذلك ما رواه الزهري عن أبي واقد الليثي أنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، ونحن حديث عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم، يقال

الْحِطِّيَةُ النَّاجِيَةُ

لها: ذات أنواط ، فقلنا: يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما هم ذات أنواط ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : الله أكبر ، إنها السنن ، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ ولهذا نهى الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ من اتباع أهوائهم ، حيث قال : ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (البقرة : ١٢٠) ، وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٨) ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الجاثية : ١٨ ، ١٩) ، وخاطب الله - سبحانه وتعالى - موسى وهارون بقوله : ﴿ فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يونس : ٨٩) وقال - تعالى - تحذير العباد المومنين : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (النساء : ١١٥) وقال تعالى لمحمد - عليه الصلاة والسلام - : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَمِنْ الْمَصِيرِ ﴾ (التوبة : ٧٣) .

شروط التعامل مع الكفار :

ولكن قد يقول قائل ، لماذا تحرّمون التعامل مع الكفار ، وقد كان النبي ﷺ يتعامل معهم في المدينة ، نقول هذا صحيح ، ولكن بشروط ، فعندما وصل النبي ﷺ إلى المدينة ، وضع بينه وبين اليهود معاهدة ووثيقة ، من بنودها :

أولاً : ألا يقاتلون المسلمين ، استناداً للآية الكريمة ﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (المتحنة : ٨) فهو لاء لا بأس أن نتعامل معهم ، أمّا أولئك الذين

يقاتلون ويشردون ، أو أولئك الذين ينتهكون الأعراض والمقدسات ، فهؤلاء لا يمكن أن نتسلم معهم بأي حال من الأحوال ، الآن ما يفعله اليهود والنصارى ، وعلى رأسهم زعيمة الشر في العالم ، هل يمكن أن نسمي ذلك سلاماً ، أو رحمة بالمسلمين ، كلا ، إن ذلك إرهاباً وإجراماً وظلماً ، يمارس في حق الشعوب المسلمة ، وعليه؛ فلا يجوز أن نواليهم من دون المؤمنين ، أو نعقد معهم صفقات تجارية أو عسكرية ، أو نفتح لهم بلاد المسلمين ، لكي ينشؤا فيها قواعدهم العسكرية ، فهذا لا يجوز شرعاً ، لأن الرسول ﷺ يقول : (أخرجوا المشركين من جزيرة العرب) وليس للمسلمين أن يقبلوا منهم المبررات الكاذبة ، تحت ما يسمى التعاون العسكري ، أو مكافحة الإرهاب ، أو تدريب الجيوش الوطنية ، فنحن لا نريد من هؤلاء الكفار ، أن يدخلوا إلى ديارنا وأوطاننا ، لأن الله عز وجل يقول ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ (الأنفال: ٣٩) لا نريد منهم : تنمية الاقتصاد ، ولا زيادة الإنتاج ، ولا تربية الأجيال ، فعندنا في الإسلام ما يؤهلنا إلى ذلك ، عندنا في الإسلام مصادر القوة والبقاء ، ففي مجال القوة ، عندنا مبدأ الجهاد والإيمان ، وفي مجال الاقتصاد عندنا المضاربة الشرعية والتكافل الاجتماعي بين المسلمين ، وعندنا في التربية ، قوله ﷺ : (علموا أبناءكم الصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم في المضاجع) ، وعندنا في تنظيم الأسرة ، قوله عليه الصلاة والسلام : (تزوجوا الودود الولود ، فإني مكاثر بكم الأمم) وعندنا في مجال الإعلام عالمية الدعوة المحمدية ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١٧) (الأنبياء: ١٠٧) عالم الإنس وعالم الجن ، وهذه القنوات الفضائية لا تستطيع أن تصل بأفكارها ومعتقداتها كما وصلت إليه رسالة محمد ﷺ .

الخيانة اليهودية :

إذا النبي ﷺ في المدينة ، عاهد اليهود على الولاء والسمع والطاعة ، لكنهم غدروا به ، وقتلوا واحداً من المسلمين في سوق بني قينقاع ، النبي - عليه الصلاة والسلام - في هذا الموقف ، لم يهادن ولم يسكت على بغيهم وفسادهم ، بل قطع معهم العلاقات الدبلوماسية ، والقنوات السلمية ، وأعلن الحرب عليهم ، أما اليوم : فيقتلون المئات والعشرات ، بل الآلاف ، وما تزال علاقتنا معهم جيدة ومتينة ، بل وطيدة ، يخربون الديار ، ويتهكون الأعراض والمقدسات ، ومازلنا نحبههم ونواليهم من دون المؤمنين ، النبي ﷺ قاتلهم وحاصرهم من أجل رجل واحد من المسلمين ، وأخرجهم من المدينة أذلة وهم صاغرين ، لكن المنافق عبد الله بن أبي بن سلول ، الذي كان يقف دائماً في صف الكافرين ويواليهم من دون المؤمنين ، لم يحلوا له هذا الجور ، وما رضي بهذه النتيجة المخزية لليهود ، فقال : يا محمد ، أحسن في موالى ، فأعرض عنه النبي ﷺ فأدخل يده في جيب درع النبي ﷺ وقال : أحسن في موالى يا محمد ، أربعمائة حاسر ، وثلاثمائة دارع ، قد منعوني من الأصفر والأحمر ، تحصدهم في غداة واحدة ، إني والله إمرئ أخشى أن تصيبنا الدوائر ، فنزل قوله تعالى في شأن هذا المنافق ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (المائدة : ٥١) إذن هذا الموقف الولا ئي ، لعبد الله بن أبي بن سلول ، ليس عنا اليوم ببعيد ، فكم من المسلمين اليوم ، المحسويين على الإسلام ، يتولون الكافرين ويقفون معهم وفي صفهم وخذقهم ، فتجد بعضهم يحترم اليهودي أكثر من احترامه للمسلمين ، وكذلك الدول التي تسمى نفسها إسلامية وعربية ، توالي اليهود والنصارى أكثر من ولائها

للمسلمين ، وتعظم القادمين من بلادهم ، وتزلهم منزلة رفيعة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، إذا عجيب لهؤلاء المسلمين ، الله عز وجل يحذرنا من موالاتة الكافرين ، فيقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۗ وَالرَّسُولُ ۙ مُحَمَّدٌ ۖ يُحْذِرُنَا مِنْ ذَلِكَ وَنَحْنُ نَحْرُصُ عَلَىٰ مَوَالِيهِمْ وَمَحَبَّتِهِمْ ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

التمايز بين المسلمين وغيرهم :

وعليه ؛ فإن الصراع بين الحق والباطل مستمر إلى قيام الساعة ، وإن المعركة بين المسلمين وأعدائهم من اليهود والنصارى ، منذ عهد طويل ، منذ أن كان النبي ﷺ في المدينة ، حينما غدروا به ونقضوا العهود والمواثيق ، التي أبرموها على أنفسهم ، عند ذلك أمر النبي ﷺ بقتالهم وبغضهم ، وترك مودتهم وحبهم ، فاستجاب الله سبحانه وتعالى لرغبة نبيه ﷺ فنزلت الآيات الكريهات ، أمرة بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة في مكة ، وذلك لما رواه البراء بن عازب رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يصلي نحو بيت المقدس ، ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر ربه ، فأنزل الله هذه الآية ﴿ قَدْ رَأَىٰ تَفَلُّتٍ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلتَوَلَّيْتَكَ قِبْلَةً رَضِيَهَا قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ (البقرة : ١٤٤) ، عند ذلك قال السفهاء من الناس ، وهم أهل الكتاب والمشركين ﴿ مَا وَلَّيْتُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ (البقرة : ١٤٢) لقد كان لهذا الحدث العظيم ، دوى كبير في المدينة وما حولها ، وكان هذا ، إيذاناً باحتدام المعركة بين الفريقين ، ولذلك جاءت الآيات اللاحقة ، تظهر ولاءات اليهود ، ومدى بغضهم للمؤمنين ، حيث قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَئِن آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِن آتَيْتَهُمْ مِنْ

بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ (البقرة: ١٤٥)
وكذلك نلاحظ هذا التمايز بين المسلمين وغيرهم من اليهود والنصارى
في ميثاق المدينة الذي أبرم بين المسلمين واليهود ، تحت إشراف النبي ﷺ
فجاء فيه :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ :

أولاً: هذا كتاب من محمد بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن
تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم .

ثانياً: إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يهود بني عوف
أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم .

ثالثاً: إنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار ، يُخاف فسادَه ،
فإن مرده إلى الله - عز وجل - وإلى رسوله محمد ﷺ وغير ذلك من
البنود التي لم نذكرها هنا .

وعليه ؛ فإن هذه الفقرات لا تحتاج إلى تعليق أو توضيح ، فهي واضحة
تماماً ، في تحديدها لمبدأ الولاء والبراء ، وأن للمسلمين كياناً خاصاً بهم ،
يستقلون به ، ولذلك كان أول خطوة خطاها النبي ﷺ عند وصوله إلى
المدينة ، هو بناء المسجد النبوي الشريف ، وكان هذا الفعل إعلاناً رسمياً
باستقلال كيان المسلمين ، وأنهم أصبحوا دولة ذات قوة وسيادة ، ثم شرع
الأذان خلافاً لناقوس أهل الكتاب ، ليزيد المسلمين استقلالاً وبهاءً على
غيرهم من أمم الأرض ، كما روى ذلك ابن هشام في سيرته عن عبد الله بن
زيد ، أنه رأى في المنام رجلاً يحمل ناقوساً ، فقال له : أتبيع هذا الناقوس ؟ ،

قال: وما تصنع به؟ قال: ندعوا به إلى الصلاة، قال: ألا أدلك على خير من ذلك؟ قال: وما هو، قال: أن تقول: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر..... إلخ، حسب الصيغة المعروفة الآن، ولما سمع رسول الله ﷺ هذه الرؤيا، قال: إنها لرؤيا حق إن شاء الله، ثم أمر بلالاً أن يؤذن بها، لأنه أندى صوتاً من صاحبه، ولما سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا النداء، خرج من بيته مسرعاً إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: يا نبي الله، والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل هذا، فقال عليه الصلاة والسلام: الحمد لله على ذلك).

إذا أيها الإخوة: بعد هذا التمايز في العبادات، وهذه المفارقة التي أشار إليها القرآن الكريم، فهل بعد هذا يصح سلام مع اليهود والنصارى، وقد أعلنوا حربهم على الإسلام في كل مكان.

نسأل الله - عز وجل - أن يجعل كيدهم في نحورهم، وأن يدمرهم بأسلحتهم وعتادهم، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

